مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 15، عدد رقم:03، سبتمبر2026، صص: 71 - 97

تاريخ الاستلام(2025/11/21)تاريخ القبول (2026/09/15)تاريخ النشر (2026/09/30)

بلاغة البداية في الحديث النبوي تحليل بلاغي – دلالي لأدوار التهيئة والتوجيه في أحاديث مختارة من رياض الصالحين

The OpeningRhetoric in Prophetic Hadith: A Semantic–Rhetorical Study of the Preparation and GuidanceLevels in Selected Narrations from (Riyāḍ al-Ṣāliḥīn)

عيدة ناغش

جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)،aida.nagheche@ummto.dz

ملخص:

يتناول هذا المقال دراسة الفنون البلاغية التي تستهل به لأحاديث النبوية الشريفة، وما تؤديه من وظائف دلالية تواصلية في توجيه المتلقي، ويهدف البحث إلى الكشف عن العلاقة بين بنية البداية في الحديث النبوي، ووظائفها البلاغية والدلالية من خلال تحليل نماذج مختارة من رياض الصالحين. وينطلق المقال من فرضية مؤدّاها أن البداية في الحديث النبوي ليست عنصرا شكليا، بل بنية بلاغية دلالية تؤسّس لتأثير الخطاب في المستمع، وتوجّه مقاصده، ولتحقيق هذا الهدف يعتمد البحث منهجا تحليليا بلاغيا دلاليا يقوم على تحليل نماذج مختارة من الحديث النبوي، من أجل الكشف عن جماليات فنون البداية، وكيفية توظيفها في بناء الدلالة وتحقيق المقصد النبوي في الإفهام والتوجيه.

كلمات مفتاحية: الحديث النبوي، البلاغة، علم الدلالة، بلاغة البداية

Summary:

This article examines the rhetorical devices employed at the opening of the Prophetic Hadiths and the communicative and semantic functions they perform in guiding the recipient. It aims to uncover the relationship between the structure of the opening in Prophetic Hadith and its rhetorical

المؤلف المرسل: عيدة ناغش **الإيميل:**aida.nagheche@ummto.dz

and semantic functions through an analysis of selected examples from Riyad al-Salihin. The article is based on the premise that the opening of a Prophetic Hadith is not merely a formal element, but rather a rhetorical-semantic structure that lays the foundation for the discourse’s impact on the listener and directs its intended meanings. To achieve this objective, the study adopts a rhetorical-semantic analytical approach based on the analysis of selected Prophetic Hadiths, with a view to identifying the aesthetic features of various opening techniques and examining how they are employed to construct meaning and fulfill the Prophetic purpose of communication, understanding, and guidance.

Keywords: Prophetic Hadith; Rhetoric; Semantics; Rhetoric of Beginnings

1. مقدمة:

يهدف هذا البحث إلى دراسة الفنون البلاغية التي تستهل بها الأحاديث النبوية الشريفة، وما تنهض به من وظائف دلالية وتواصلية تُسهم في توجيه المتلقي، وإعداد ذهنه لتلقي الخطاب، إذ تمثل البداية في أي نص أدبي، أو خطابي نقطة الانطلاق في بناء المعنى، فهي البوابة التي يدخل منها المتلقي إلى عالم النص، وإذا كانت البلاغة القديمة قد أولت فنون الافتتاح والتمهيد عناية خاصة لما تحقّقه من تأثير في المتلقي، فإن الحديث النبوي الشريف قدّم نماذج راقية من البدايات التي تجسّد براعة التعبير ودقة التوجيه.

الحديث النبوي خطاب موجّه، يجمع بين جلال المصدر، وبلاغة الأداء، لذلك جاءت بداياته مشحونة بطاقة دلالية قادرة على شدّ الانتباه وتوجيه الفهم، فدراسة فنون البداية في الحديث النبوي من منظور بلاغي دلالي تمثّل مسعى للكشف عن كيفية تظافر الشكل والمعنى في نصّ معجز، يزاوج بين البيان والإقناع، كما تسعى هذه الدراسة إلى توضيح الوظائف البلاغية والدلالية التي تؤديها البدايات في الخطاب النبوي، مثل التنبيه، التهيئة، الاستمالة، الإقناع، انطلاقا من مقاربة تجمع بين التحليل البلاغي والتفسير الدلالي.

ومن هذا المنطلق سنعمل على تحليل ودراسة بعض الأحاديث النبوية لنستجلي بلاغة البداية في الحديث النبوي، من حيث قدرتها على تهيئة المتلقي وتوجيهه، مستندين إلى مقاربة تجمع بين البلاغة وعلم الدلالة، معتمدين في البحث المنهج التحليلي البلاغي-الدلالي، الذي يجمع بين الاستنباط والمقارنة.

- **المحور الأول: الإطار النظري:**

1- البلاغة النبوية:

بُعِث النبي لإتمام مكارم الأخلاق، والسمو بالنفس الإنسانية، والتحليق بها في سماء الفضيلة، فهو موجّها ومرشدا إلى سبل ذلك وآلياته التي منها تهذيب النفس، و«ألقى الله عليه المحبّة وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حُسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته"[1].

امتاز الحديث النبوي في التفوق الأسلوبي والإقناع، والإمتاع النفسي، ولعلّ السرّ في ذلك يعود إلى أنّ بلاغته وفصاحته كانت توقيفية من الله I، كما أنّ قومه كانوا أهل فصاحة وبيان، يدركون ما للسان من قوّة، وللكلمة من معانٍ سامية، وليس أدلّ على ذلك من قوله I: ﴿وما ينطق عن الهوى۞ إن هو إلا وحي يُوحى۞ علّمه شديد القوى﴾ [النجم من 3 – 5]

- **تعريف البداية في التراث البلاغي:**

2- ثبت المصطلحات وتحديد المفاهيم:

- **فن البداية أو حسن الابتداء** هو: كل الأساليب البلاغية التي تفتتح النص، أو الحديث، وتهدف إلى توجيه المتلقي وإعداده لفهم محتوى النص، واستيعاب معانيه، ويشمل ذلك التهيئة، التوجيه، التحذير، التصوير، والإيجاز، أي أنّه إطار شامل للبداية النصية، ويقول عنه التبريزي بأنّه: "أن يبتدئ بما يدل على غرضه"[2]، وعرّفه ابن القيم الجوزي في كتابه الفوائد بأنّه: " أن يذكر الانسان في أول خطبته، أو قصيدته، أو رسالته كلاما دالا على الغرض الذي يقصده ليكون ابتداء كلامه دالا على انتهائه ..... "[3].

- **فن الاستهلال** هو: فن يركّز على جانب جذب الانتباه وتهيئة المتلقي، وهو جزء محدود من فن البداية، يقتصر غالبا على جانب التمهيد فقط، أي على استهلال النص لجذب الانتباه وتهيئة المتلقي، دون أن يغطي الوظائف البلاغية الأخرى، ولكن هناك من يخلط بينه وبين حسن الابتداء، ورد هذا المصطلح عند مؤلف كتاب " روضة الفصاحة" فقال: "هو أن يبتدئ الشاعر في أول رسالته بلفظ بديع مصنوع، ومعنى لطيف مطبوع، ويحترز من كلمات يُتَطَيّر بها، أو تكون فيها ركاكة، فإن المطلع أوّل ما يقرع السمع، وربما تفاءل به الممدوح أو بعض الحاضرين "[4].

كما يعكس الاستهلال "جزءا من العملية الإبداعية والكيفية التي يكون عليها المبدع قبل مرحلة الكتابة"[5]، فهو عتبة قرائية واستراتيجية نصية مشحونة بالكتابة الدلالية[6]، وله وظيفتين مهمتين هما: جلب انتباه المتلقي، والتلميح بأيسر الكلام إلى مضمون النص، وهذا ما ذهب إليه الكثير من البلاغيين كابن الأثير، وأحمد الهاشمي، إذ يروا أن هاتين الوظيفتين من أهم الوظائف التي يؤدّيها الاستهلال.[7]

3- **فن البداية وفن الاستهلال التمايزوالتداخل:** في الدراسات البلاغية التي تناولت بدايات النصوص الدينية والأدبية، يشيع استعمال مصطلح "براعة لاستهلال" للدلالة على الأساليب البلاغية التي يُفتتح بها الكلام، بقصد شدّ انتباه المتلقي، وتهيئته لتلقي المضمون، غير أنّ هذا المصطلح، على الرغم من ذيوعه، يظلّ في كثير من الاستعمالات محصورا في الوظيفة التمهيدية، دون أن يستوعب سائر الوظائف البلاغية التي يمكن أن تضطلع به مقدمة النص، كالتوجيه، والتحذير، والتصوير، والإيجاز، ومن هنا تبرز ضرورة ضبط المفاهيم، وتحديد الفروق بينها.

وعند الرجوع إلى التراث البلاغي، نجد أن بعض البلاغيين لم يميّزوا بدقة بين مصطلحي " حسن الابتداء" و"براعة الاستهلال"، بل استعملوهما أحيانا على جهة الترادف، فقد جاء في كتاب أنوار الربيع في أنواع البديع، في سياق الجمع بين المصطلحين، أنّ حسن الابتداء – ويُسمّى أيضا براعة المطلع- هو أن يُحسن المتكلّم افتتاح كلامه، فينتقي له أعْذب الألفاظ وأجزلها، وأوضحها معنى، وأصحّها مبنى، مع تجنّب الحشو والتعقيد وسوء الترتيب، ويُفهّم من هذا العريف أنّ وضوح المادة اللغوية وجودتها شرط أساس في نجاح البداية، إذ به يتيسّر إدراك ما يتلوها من الكلام.[8]

وفي الاتجاه نفسه، يُفضّل صاحب خزانة الأدب وغاية الأرب استعمال مصطلح "حسن الابتداء"، مبيّنًا أنّ البلاغيين قد اتفقوا على أن براعة المطلع هي ظهور المعاني واضحة منذ مطلع الكلام، وأنّ تسميتها بـ "حسن الابتداء" تنطوي على ضرورة تجويد المطلع وتحسينه، فقال: " اعلم أنّه اتفق علماء البديع على أنّ براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلّة المعاني واضحة في استهلالها ...... وقد سمي ابن المعتز براعة الاستهلال حسن الابتداء، وفي هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع، وإن أخلّ الناظم بهذه الشروط لم يأت بشيء من حسن الابتداء ".[9]

أمّا السيوطي فقد ميّز بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء بقوله: "ومن الابتداء نوع أخص منه يُسمّى براعة الاستهلال، وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله"[10].

من هذا المنطلق، يتبنى هذا البحث مصطلح فن البداية أو فن الافتتاح ليشمل جميع الأساليب البلاغية التي تمهّد لمضمون النص، والتي تفتتح النص، وتوجّه المتلقي، من التهيئة إلى التوجيه، وإلى التحذير والتصوير، والإيجاز، وتوجّه المتلقي نحو فهمه واستيعابه، بما يتجاوز مجرّد التمهيد التقليدي، وبهذا يُنظر إلى فن البداية على أنّه إطار أوسع وأكثر شمولا، يجمع بين الاستهلال، وأشكال البلاغة الأخرى التي تؤدي وظيفة افتتاحية متعددة الأبعاد فيصبح بوابة لفهم المعنى، واستشراف محتوى الحديث، ليصبح الفهم رحلة تبدأ مع أول حرف.

4- **مفهوم البداية ووظائفها البلاغية:** تُعرف البداية في الاصطلاح البلاغي بأنها الجزء الأول من الخطاب الذي يُراد به تهيئة المتلقي، واستمالته، وتوجيه انتباهه نحو المقصود، وقد أطلق عليه البلاغيون على هذه الظاهرة أسماء متعدّدة منها: براعة الاستهلال، التمهيد، التوشيع، والافتتاح، وكلها تشير إلى فن لغوي يهدف إلى تهيئة السامع واستمالته، وجميعها تدور حول فن استهلال الكلام بما يناسب غايته، فالبداية هي جسر بين المتكلم ولمتلقي، ومجال لتحقيق التناسب بين المقا والمقال.

وتتعدّد وظائف البداية البلاغية، فهي من جهة جمالية، تبرز مهارة المتكلم في صياغة مدخل متين لنصه، وهي من جهة تواصلية، تسعى إلى بناء علاقة خطابية مع المتلقي، كما أنّها دلالية؛ إذ تحدّد أفق التلقي وتفتح مسار التأويل.

من منظور علم الدلالة، تؤدي البداية وظيفة مقامية حاسمة، إذ تحدّد السياق التداولي، وتظهر موقف المتكلّم من الخطاب والمُخَاطَب، فهي اللحظة التي يتكون فيها الانسجام بين البنية اللفظية والمقصد المعنوي، وتنهض البداية بوظائف بلاغية متعدّدة منها:

- **جذب انتباه السامع:** لفت انتباه المُخَاطَب لما سيُقال، ليكون أكثر استعدادا لتلقي الرسالة.

- **الوظيفة التداولية:** تتعلّق بفعالية الخطاب في الموقف؛ أي كيف تُحدَث البداية أثرها في المتلقي (أمرا نهيا عتابا، أو تقريبا معنويا).

- **التبيين والإيضاح:** توضيح قضية خفيت أو اشتبهت على الناس.

- **التحذير:** تنبيه السامع مما يضرّه في دينه أو دنياه.

- **الإقناع:** استعمال أساليب التأكيد أو القسم أو التكرار لترسيخ المضمون.

- **تهيئة المتلقي نفسيا لفهم المقصد:** تهيئ السامع للمعنى أو الموعظة، وتفتح الباب لتقبل الكلام

- **المحور الثاني الابتداء التهيئة والتأثير:**

تُعدّ البداية في النصوص الخطابية مفتاح المعنى، وأول خيوط التواصل مع المتلقي، فهي تمثل اللحظة التي يختبر فيها نجاح الخطاب في جذب الانتباه، وتهيئة الأذهان لتلقي الرسالة، وقد عني البلاغيون القدامى بفنون الافتتاح والتمهيد، وعدّوها مظهرا من مظاهر براعة المتكلّم في تكييف خطابه بحسب المقام.

تتنوّع بدايات الأحاديث النبوية في أساليبها ووظائفها، لكن يجمعها وعي بلاغي ببنية التواصل، ومن خلال النظر في عدد من الأحاديث النبوية، يتّضح تنوع فنون البداية التي اعتمدها الخطاب النبوي مما يدلّ على وعي لغوي عميق في بناء الأثر البلاغي والدلالي.

وتنطلق هذه الدراسة التطبيقية من فرضية مؤداها أن البداية النبوية ليست مُجرّد تمهيد بلاغي، بل فعل تواصلي موجّه يُسهم في بناء العلاقة بين المتكلّم والمُخاطَب، ويُحدِّد مسار التلقي منذ اللحظة الأولى للنطق، ولتحقيق ذلك، اعتمدت الدراسة منهجا تحليليا بلاغيا- تداوليا، يقوم على قراءة النص الحديث في ضوء مقامين متكاملين:

- **المقام البلاغي**: الذي يُعنى بطرائق الصياغة، وتنوّع الأساليب، وجماليات البنية الافتتاحية (كالتكرار، والقصر، والتصوير، والنداء، والتمهيد ....).

- **المقام التداولي:** الذي ينظر إلى الغرض الاتصالي، والبعد المقصدي وراء هذا الافتتاح، أي ما الذي يفعله النبي بخطابه، وكيف توجّه البداية المتلقي نحو الغاية التعليمية أو التحذيرية، أو التوجيهية.

والحديث النبوي الشريف من أبلغ النصوص التي تجلّى فيها حسن الابتداء، إذ تتنوع بداياته بين النداء والاستفهام، والقسم، والتكرار، وغيرها من الوسائل التي تخدم غرضا

تواصليا ودلاليا عميقا، فالبداية النبوية ليست مجرّد تمهيد لغوي، بل خطاب موجّه بعناية، يصاغ بما ينسجم مع طبيعة الموقف والمقصد التعليمي، أو الإرشادي، كما أن الابتداءات الحسنة التي فتح بها أحاديثه كانت مفاتيح للقلوب، وسببا في التأثير في المتلقين، والتأثّر بلغة الخطاب النبوي، وبناء على هذا، ستتناول الدراسة طائفة من الأحاديث التي افتتح فيها الرسول كلامه بأساليب مختلفة تؤدّي وظائف متنوعة، منها:

1- البداية بـأسلوب النفي:

يظهر الافتتاح بأسلوب النهي بوصفه أداة لإعادة تشكيل المفاهيم وتقويمها، كما في الحديث النبوي الذي رواه أنس بن مالك قال: قال الرسول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[11]، حيث تبدأ الجملة بالنفي (لا يؤمن)، وهو نفي وجودي، وليس مجرّد أسلوب نحوي، لأنّه لا ينفي الإيمان مُطلَقا؛ بل ينفي كماله، وبهذا الاستهلال التحذيري، يزرع الحديث حالة من القلق المعرفي في ذهن السامع، فيتأهب لمعرفة الشرط الناقص، فتحقّق بذلك الجملة توازنا صوتيا ودلاليا بين شطريها:

(لا يؤمن أحدكم) ⟺ (حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه)، وهذا التوازن يجعل البداية ذات طابع موسيقي منضبط، كأنّها ميزان أخلاقي.

هذا بلاغيا أما دلاليا فإنّ الانتقال من النفي إلى الاثبات (من لا يؤمن ⟺ يحبّ) يُجَسّد حركة التلقي من الخوف إلى الأمل، وهي بنية شائعة في بدايات الأحاديث النبوية التربوية.

ويظهر لافتتاح بأسلوب النفي بوصفه أداة لإعادة تشكيل المفاهيم وتقويمها، كما في قوله: «لَيس الواصلُ بالمكافِئ، ولكنّ الواصل الّذي إذا قُطِعَت رَحِمَه وصَلَها »[12]، حيث يبدأ الخطاب بنفي تصوّر شائع، ثم يستدرك ليبني تعريفًا جديدا، هذه البنية القائمة على الهدم ثم البناء تمنح النفي قوة دلالية تتجاوز الإنكار إلى التأسيس، إذ يُعاد توجيه الفهم نحو معنى أعمق.

بينما يظهر النفي في قوله: «لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلاّ بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه »[13]بصيغة تقريرية تضبط الحكم، وتحدّده، وعلى هذا النحو، يتحرّك النفي بين التصحيح المفاهيمي، والتحديد التشريعي، مع احتفاظه بقوة تقريرية حاسمة.

2- البداية بـ التشبيه التمثيلي:

التشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى بإحدى أدوات التشبيه[14]، والتشبيه من الأساليب التي اعتمدها الرسول لزيادة البيان والتوضيح، والتقريب، ليكون عنصرا فاعلا لتحقيق غاية الإقناع والتأثير في المتلقي، ويُوَظّف التشبيه لجذب الذهن والخيال، وإعداد النفس لتلقي الدرس، ومن شواهد الافتتاح بالتشبيه ما روي عن النعمان بن البشير قال: قال رسول الله : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».[15]

يفتتح النبي حديثه بأسلوب تمثيلي (مثل المؤمنين) وهو من أبلغ أنواع البدايات؛ لأنّه يدخل السامع إلى الصورة مباشرة دون مقدّمات تجريدية، فالتركيب قائم على تكرار اشتقاقات صوتية: (توادهم، تراحمهم، تعاطفهم)، وهي حركة إيقاعية تولّد شعورا بالوحدة حتى قبل اكتمال المعنى، فالبلاغة هنا ليست في التشبيه ذاته فقط؛ بل في الزمن البلاغي للبداية، فقبل أن تُذْكَر الجملة التمثيلية الثانية (مثل الجسد) يكون السامع قد تشكّل لديه الإحساس بالمشهد الجماعي.

هذا بلاغيا أما دلاليا؛ يُوَظّفُ الحديث الجسد كرمز للكيان الإنساني الجمعي، ويجعل العلاقة بين الأعضاء علاقة شعورية – أخلاقية، فيتحوّل التشبيه إلى تماثل وجودي بين الجسد والمجتمع، إنّها بداية تصويرية تبني أخلاقا من خلال الصورة، لا من خلال الوعظ المباشر، وهكذا استثمر النبي طاقة التشبيه في إقناع المتلقي، والتأثير عليه، حتّى يستجيب لما طُلِب منه، والعناية، والاهتمام بالأمر المناط به.

كما يُعرض المعنى في صورة قصصية تمثيلية في مثل قوله: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبّهُنّ عنها، وأنا آخذ بِحُجَزِكُم عن النّار، وأنتم تفلّتون من يديَّ »[16] وفي قوله أيضا: «مثل الجليس الصالح، وجليس السوء، كحمل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إمّا أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا مُنتّنةً »[17]، ومن ثمّ، يعمل التشبيه على تجسيد القيم وتحويلها إلى مشاهد قابلة للإدراك والتأثّر.

3- البداية بأسلوب النداء:

النداء يُعِدُّ النّفْسَ ويُهيّئها لتلقي ما يطلب منها، فهو يوقظ النفس، ويُنبّه المشاعر، فإذا ما جاء بعده الأمر، أو النهي، أو الاستفهام، صادف نفسا مهيّأة يقِظة، فيقع منها موقع الإصابة حيث تتلقّاه بِحِسٍّ واعٍ وذهنً منتبه[18] وهو من أبلغ أساليب التنبيه والاستحضار في العربية، والنداء هنا لا يُقْصَد به مُجرّد توجيه الخطاب، بل يحمل قوّة استدعاء شعورية تُدخل السامع في المقام مباشرة، فالنداء هو وسيلة التخاطب المثلى لإيصال الرسالة وتبليغها إلى الآخرين.[19]

جاء أسلوب النداء في الحديث النبوي معبّرا عن معانٍ مختلفة، ومُحقّقا لأغراض متعدّدة، ملبيا حاجة الدعوة الإسلامية إلى التحقّق والتنبيه والتوجيه، ومن شواهد الافتتاح بالنداء في الحديث النبوي قوله : «يا أيّها الناس لا تتمنّوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السّيوف»[20].

يفتتح النبي خطابه بنداء عام: (يا أيّها الناس)، وقد استعملت صيغة النداء الطويلة (يا أيّها الناس) لزيادة التهيئة النفسية، واستجماع الانتباه، فجمعت بين البلاغة الصوتية في مدّ النداء والبلاغة المقامية في عمومية الخطاب.

والنداء هنا أسلوب بلاغي يوقظ الانتباه، ويثيره، كما يؤسّس لعلاقة تواصلية مباشرة بين المتكلم والجمهور، فيجمع بين التنبيه والإرشاد، ويدخل المخاطب أو المتلقي في جو الخطاب من أول وهلة، ليصبح الخطاب ذا طابع جماعي تربوي.

ولقد تلا هذا النداء مجموعة من أفعال الأمر (اسألوا، فاصبروا، اعلموا) وهي إرشادية توجيهية نصحية، وفي نفس لوقت حقّقت إيقاعا حركيا متصاعدا.

أمّا **دلاليا**؛ يحمل النداء معنى الاستحضار النفسي للمخَاطَب، وإشراكه في فعل الفهم والعمل، فهذا النداء يؤسّس لعلاقة تواصلية شمولية، فالمُخاطَب (الناس) كلهم، ممّا يمنح الخطاب بعدا كونيا أخلاقيا.

ومن أمثلة ذلك أيضا الحديث الذي رواه أبن عبّاس : قال: قال رسول الله : «يا غلام إنّي أعلمك كلمات: احفظ اله يحفظك، تجده اتجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»[21].

افتتاح الحديث بالنداء: يا غلام، يشي بالتخصيص الحميمي، يخلق جسرا وجدانيا بين المربي والمتعلّم، وعندما يليه تركيب (إنّي أعلمك كلمات) فهذا يُعَدّ تمهيدا بلاغيا توجيهيا، يخبر فيه المرسل المتلقي بغاية الحديث قبل أن يُلقي الوصايا، فتنشأ حالة من التوقّع والاستعداد؛ فالجملة قصيرة إيقاعها متوازن، فيها تقديم الذات النبوية بوصفها معلّمة لا آمرة فقط، وحين بدأ الرسول حديثه بهذا النداء لفت انتباه الغلام، فالبنية الندائية تتميّز من بين الأساليب الطلبية بتأكيد بُعد الانفتاح، فهو انفتاح وانتشار باتجاه العالم الداخلي والخارجي.[22]

وتتابع الأوامر اللاحقة (احفظ الله يحفظك .....) في صورة مقابلة لفظية ومعنوية، تمثّل أسلوبا بلاغيا قائما على التبادل شرط وجزاء، فالمعنى قائم على موسيقى معنوية داخلية بين احفظ ويحفظك وهي بلاغة الترابط الصوتي التي تخدم غرض التوجيه الحواري.

هذا بلاغيا، أما دلاليا فالوظيفة الرئيسة توجيهية تربوية، يُراد بها بناء السلوك الإيماني القائم على المراقبة، فالحديث يبدأ من العلاقة بين الإنسان وربّه، لينتهي إلى علاقة الإنسان بالقدر (رُفِعَت الأقلام).

أما في قوله: «يا بن آدم، إنّك أن تبذل الفضل خير لك، وأن تمسكه شر لك، ولا تُلام على كفاف، وابدأ بمن تعول»[23] فإن النداء هنا يحمل بُعدًا تذكيريًا عامًا يستحضر حقيقة الإنسان، وبذلك، لا يكون النداء مجرّد استهلال، بل وسيلة لتهيئة المتلقي نفسيًا وربطه مباشرة بمضمون الخطاب.

4- البداية بأسلوب الشرط:

يُعَدّ من أقوى الأساليب تأثيرا في المخاطب، حيث يؤثّر فيه تأثيرا كليا؛ لما يقتضيه من التلازم بين طرفيه، وتُسبّب أحدهما على الآخر [24]، كما أنّه يجذب انتباه المتلقي، وتشويقه، ويمنحه فرصة التفكير والمشاركة، ومن أمثلة ذلك قوله : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت»[25].

افتتاح الحديث بجملة (من كان يؤمن بالله) يربط الحكم الشرطي بأعلى القيم العقدية، فتكون البداية توجيها سلوكيا مُقَنّعا بالعقيدة، فالأسلوب الشرطي في ذاته يُنتج توازنا بلاغيا بين الإيمان والسلوك، إذ يُصاغ التوجيه في قالب منطقي لا وعظي، والفعلان في

الطرفين (فليقل /ليصمت) متقابلان صوتا ومعنىً في تكوين بلاغيّ مكثّف فيه مقابلة لفظية مقصودة تولّد الإيقاع الإقناعي.

هذا بلاغيا، أما دلاليا؛ فهذا التوجيه يُنَظِّمُ السلوك اللغوي للمؤمن: فالقول مسؤولية دينية، والتوجيه هنا يستند إلى آلية (الترغيب / الترهيب) المعنوي؛ لأنّ الإيمان شرط مُقَدَّم، فالإخلال بالتوجيه إخلال بالعقيدة، فالوظيفة التوجهية تتجاوز الإرشاد الأخلاقي لتصبح تقنينا تواصليا داخل المجتمع المؤمن.

أما في قوله: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فَلْيُسلّم، فَإذا أراد ان يقوم فليسلّم، فليست الأولى بأحقّ من الآخرة»[26]، يتجلى أسلوب الشرط بصيغة (إذا) التي تفيد تحقّق الوقوع، ممّا يجعل الخطاب مرتبطًا بسياقات يومية متكرّرة، ويُلاحظ تكرار البنية نفسها في حالتي الدخول والخروج، وهو تكرار يحقّق نوعًا من التوازن السلوكي، حيث يساوي بين البداية والنهاية.

كما أنّ التعليل (فليست الأولى بأحقّ من الآخرة) يرسّخ هذا التوازن، ويمنح الفعل بعدًا دلاليًا قائمًا على المساواة، بحيث لا يُفهم السلام عند الدخول بوصفه أهم من السلام عند الانصراف، وعلى هذا، فإنّ الشرط هنا يُسْتخدم لتنظيم السلوك في مواقف مُحدّدة، مع الحفاظ على وضوح العلاقة بين الفعل ومقامه.

ونجد في قوله: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يُطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعْصِ الأمير فَقد عَصاني»[27]، افتتاحا بأسلوب الشرط يؤسّس منذ اللحظة الأولى لعلاقة سببية محكمة بين لفعل ونتيجته، هذا الشرط بُنِيَ على توازٍ تركيبي صارم، حيث تتكرّر الصيغة نفسها (من + فعل+ جواب مقرون بـ "فقد") في نسقٍ منتظم، وهذا التكرار لا يؤدّي وظيفة إيقاعية فحسب، بل يُحدِث تثبيتا دلاليا تدريجيًا، يجعل المعنى يترسّخ عبر التكرار لا عبر التصريح المباشر.

ويتعزّز هذا البناء عبر المقابلة الثنائية بين (أطاع #عصى) وهي مقابلة حادة تغلق المجال أمام المنطقة الوسطى، وتُحوّل الخطاب إلى نظام قيمي قائم على قطبين متقابلين.

ومن جهة أخرى يكشف الانتقال «من أطاعني ... أطاع الله» إلى «يُطِع الأمير .... أطاعني» عن امتداد دلالي متدرّج، حيث تُبنى علاقة الطاعة في شكل سلسلة مترابطة، ينتقل

فيها المعنى من الأعلى إلى الأدنى، ومن الأصل إلى الفرع، هذا الامتداد لا يُعرض عرضًا نظريا، بل يُدمج داخل البنية الشرطية نفسها، ممّا يجعل العلاقة حتمية، أمّا اقتران جواب الشرط ب "فقد" فيضفي على الجملة معنى التحقيق والتوكيد، فيتحوّل الشرط من احتمال إلى حقيقة مؤكّدة الوقوع، وكأنّ العلاقة بين الطاعة ونتيجتها علاقة لازمة لا تنفك، وبذلك، لا يعود الشرط مجرّد أداة ربط، بل يصبح وسيلة لتقرير قانون دلالي ثابت.

وعليه، فإنّ الافتتاح في هذا الحديث لا يكتفي ببيان حكم، بل يؤسّس بناءً دلاليا متكاملاً يقوم على التوازي، والتقابل، والتدرّج، والتوكيد، ممّا يجعل المعنى يتشكّل في ذهن المتلقي بوصفه نظامًا مترابطًا لا مجرّد توجيه منفصل.

يتضح أن الافتتاح بأسلوب الشرط في هذه الأحاديث يجمع بين بناء المعنى في مستواه الكلّي، كما في ترسيخ نظام الطاعة، وتنظيمه في مستواه الجزئي، كما في آداب المجالس، وبذلك، يتحوّل الشرط إلى أداة تربط السلوك بسياقه، وتؤسّس علاقات واضحة بين الأفعال ومقاماتها، سواء في بعدها لعقدي، أو في ممارستها اليومية.

5- البداية بأسلوب القسم:

قال ابن أبي الإصبع عن القسم: " وهو أن يريد المتكلم الحلف على شيء فيحلف بما يكون فيه فخر له أو تعظيم لشأنه أو تنويه لقدره، أو ما يكون ذمًّا لغيره، أو جاريا مجرى الغزل والترقق، أو خارجا مخرج الموعظة والزهد "[28]، ويُحَقّق القسم توكيدا للصدق، ورفعا لاحتمال الشك، فيتحوّل إلى وسيلة بلاغية ذات وظيفة دلالية تؤكّد جديّة القول ومصداقيته.

إنّ كلام رسول الله ﷺ ليس محلا للشكّ أو الجدال عند أصحابه رضوان الله عليهم، فهو إذن لا يقسم من أجل طلب التصديق من عند الصحابة؛ بل لأغراض ودوافع أخرى كما أنّه لا يُقسِم لمجرّد تأكيد كلامه بل يتجاوز ذلك إلى معانٍ أخرى، فقد يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر، فيكون الغرض التحذير من مخالفة الشرع، أو الترهيب من تجاوز حدّ من حدود الله، أو الإخبار بأمر غيبي، وتأكيد حقيقة مخالفة للأمر الظاهر، والحث على السعي في طلب الآخرة وغيرها من الأغراض، كطلب المغفرة من الله عز وجل والرجوع إليه وذلك مثل ما ورد في الحديث الذي رواه أبو هريرة قال: سمعت رسول الله يقول : «والذي نفسي بيده،

لو لم تذنبوا، لذهب الله تعالى بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى، فيغفر لهم»[29].

افتتح الرسول الحديث بجملة (والذي نفسي بيده) وهي صيغة ذات بعد تأكيدي، ودلالي، تبرز صدق الخبر، وتمنح القول قوة إقناعيه عالية، لما فيها من توكيد المعنى بوسيلة شعورية، فالقسم هنا وسيلة بلاغية تضفي على الخطاب قوّة تأكيدية وجدانية، فالنبي يقسم بالله عزّ وجل ليؤكّد حقيقة إيمانية لا مجال فيها للمساومة، وهذا الأسلوب في الافتتاح بالقسم يخلق ما يسمّيه البلاغيون التهيئة الوجدانية، أي إعداد المتلقي نفسيا لتلقي أمر خطير.

هذا بلاغيا، أمّا من الجانب الدلالي فالقسم يبرز علاقة المتكلّم بالمخاطب من خلال توتّر بين الصدق والإلزام، وهو يرفع المعنى من مستوى الإخبار إلى مستوى التعليم والتوجيه الأخلاقي؛ ممّا يربط البنية البلاغية بالمقصد القيمي في الخطاب النبوي.

كما يأتي الافتتاح بأسلوب القسم ليمنح الخطاب أعلى درجات التوكيد، كما في قوله: «والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل بالقبر، فيتمرّغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدّين، ما به إلاّ البلاء »[30]، حيث يتضمّن القسم معنى القدرة والهيمنة، فيضفي على الخبر رهبة وقوة تصديق، ويهيّئ هذا الافتتاح المتلقي لتلقي مضمون ذي أهمية، فيرتفع مستوى الانتباه والتلقّي.

أما في قوله: «والله إنّي لأستغفر الله وأتوب إليه في ليوم أكثر من سبعين مرة»[31]فإنّنا نجده يجمع القسم بين التوكيد والتطبيق العملي، فيتحوّل القول إلى نموذج يُحتذى، ومن ثمّ، فإنّ القسم لا يقتصر على تأكيد المعنى، بل يُعمّق أثره ويثبّته في ذهن المتلقي.

6- البداية بأسلوب الاستفهام:

يثير الاستفهام التفكير ويحفّز على المشاركة، فيجعل السامع جزءا من إنتاج المعنى، وبلاغيا هو وسيلة تشويق، أمّا دلاليا؛ فهو مفتاح تأويلي للحديث اللاحق، وهو أسلوب بلاغي يفتح أفق التلقي على التفاعل والتفكير، وينتج دلالة تعليمية تقوم على إشراك السامع في توليد المعنى؛

يخرج الاستفهام عن وظيفته اللغوية لغايات بلاغية يحدّدها السياق، ومن هذه الأغراض النفي، التقرير ... [32]، فالاستفهام يتحوّل لوجود جملة من القرائن المقالية، والمقامية، يختارها المتكلّم لمقصد، كالعرض في قولنا: ألا تحبّ أن تنزل فتأخذ شيئا، وانصرافه إلى الإنكار في قولنا: أمثلك يفعل هذا، لمن تراه يفعل فعلا مشينا، وهكذا تتعدّد وظائف الاستفهام بحسب المقام، الذي يُستعمل فيه.[33]

ويستعمل الاستفهام الافتتاحي لتحفيز التفكير، وجذب انتباه السامع، ومن شواهده في الحديث النبوي الحديث الذي رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله : «أتدرون من المفلس؟»، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «المفلس أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحَتْ عليه، ثمّ طُرِحِ في النار»[34].

الاستفهام هنا للتشويق، فهو استفهام تقريري يستخدم لا لطلب الجواب، بل لإحداث مشاركة معرفية، فهو يوقظ الفكر، ويثير الترقّب، ويجعل المتلقي شريكا في بناء المعنى، فبهذا الأسلوب حوّل الرسول المتلقي من متلقٍ سلبي إلى متلقٍ متفاعل متجاوب، فهو بهذا يستميل القلوب، ويُرغبها في الإقبال على الكلام بوعي، وفهم وإدراك وقبول، ويأخذ بيد المتلقي إلى أن يتعمّق ويتغلغل في النص لسبر أغواره بحبّ وشغف، وهذا من شأن حسن الابتداء، وبداية المطالع الجيّدة التي تدعو إلى التدبّر والتبصّر فيما هو آتٍ.

هذا بلاغيا، أمّا دلاليا فهذا الأسلوب يُحْدِث تحوّلاً في المفهوم، فالمعنى المتداول ل: المفلس يُعاد تعريفه دينيا، إذا فالاستفهام ليس شكلا بلاغيا فقط، بل أداة لإعادة بناء المفاهيم في ذهن المتلقي، أي توليد دلالة جديدة عبر فعل بلاغي.

ومن أمثلة ذلك أيضا الحديث الذي رواه أبو هريرة : قال: قال رسول الله : «ألا أدلكم على ما يمحو به الله الخطايا ويرفع به في الدرجات؟ » قالوا: بلى يا رسول الله قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرّباط، فذلكم الرّباط»[35].

جاء حسن الابتداء هنا في غاية الجمال، وذلك بتشويق النفوس، وبعث الهمم عن طريق استخدام أسلوب الاستفهام، وأسلوب الاستفهام في هذا المقام استفهام دعائي يفتح

بالعرض والوعيد الإيجابي، فالافتتاح بالاستفهام التحريضي ليس بحثا عن معلومة بل وسيلة لجذب الانتباه بالوعد الفوري محو الخطايا وزيادة الدرجات، كما أنّه أسلوب إعلاني _ تحريضي يشبه عنوان يجذب المتلقي، فالتركيب: يمحو الخطايا ويزيد الدرجات يجمع نقيضين: الإزاحة (محو)، والزيادة (ترقي)، هذا التباين يُعزّز قيمة الفعل المقترح، كما أنّ افتتاح الرسول بـ (ألا) الاستفتاحية يُلفت انتباه المتلقين، وهم الصحابة، إلى أهمية ما سيأتي بعدها، فيأتي الخبر وقد تهيأت النفوس لاستقباله وفهمه.[36]

هذا بلاغيا أما دلاليا فالاستفهام هنا يعمل على تهيئة معنوية وتحفيز للمتلقي ليصبح مستعدا لاستقبال مطلب تطبيقي، لأنّه يُعْرَض عليه منفعة واضحة، كما يحمل هذا الاستفهام وظيفة إقناعية مسبقة تقلّل مقاومة السامع، لأنّ الفعل المرتقب معه وعد واضح ومكافأة، فأسلوب الاستفهام هنا آلية خطابية عملية يقلب المناخ من محاضرة نظرية إلى دعوة لتطبيق فوري.

وفي قوله: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليكِكُم، وارفعها في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إنفاق الذهب والفضّة، وخيرٍ لكم من أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى، قال: «ذكر الله تعالى».[37]

يُستهلّ لخطاب بأداة التنبيه (ألا) التي تُخرجُ الاستفهام من دلاته الأصلية إلى وظيفة تنبيهية، فالابتداء بـ (ألا) يعمل على تقرير و "تحقيق مضمون الجملة بعدها "،[38] ويعمل كذلك على تنبيه المتلقين إلى ما سيأتي بعدها، ثم يتدرّج في عرض القيم (خير، أزكى، أرفع) في نسقٍ تصاعدي يُولّد حالة من الترقّب، هذا التراكم لا يُقدّم المعنى مباشرة، بل يؤجّله قصدًا، ليجعل المتلقي في حالة انتظار، فيأتي الجواب (ذكر لله) مُحمّلا بقوة مضاعفه،

وإذا كان الشاهد السابق يعكس البنية الاستفهامية في صورتها التشويقية المركّبة، فإنّ صيغًا أخرى للاستفهام مثل (مالي وللدنيا؟) التي وردت في قوله: «ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ اِستظلّ تحت شجرة ثمّ راح وتركها»[39]تُبْرِز بُعدَها الإنكاري، حيث يُنفى التعلّق بالدنيا بأسلوب يقطع إمكان الجواب، وبذلك، يتنوّع الاستفهام بين التشويق والإنكار والتنبيه، لكنّه في جميع صوره يهيّئ الذهن لتلقي المعنى بدل فرضه مباشرة.

تُظْهِر دراسة النماذج السابق ذكرها من الأحاديث النبوية أنّ النبي كان يفتتح أحاديثه بأساليب متنوعة تهدف إلى تهيئة المتلقي نفسيا وذهنيا، وإعداد الساحة الذهنية لتلقي المضمون، مما يعكس وعيا بلاغيا دقيقا في اختيار البنية واللفظ والأسلوب.

كما أنّ هذه النماذج تكشف أنّ البداية النبوية ليست عنصرا تمهيديا محضا، وليست مُجرّد مقدّمة أسلوبية، بل هي بنية بلاغية دلالية مقصودة، تتحكّم في إيقاع الخطاب، ودلالته، كما تؤدّي وظيفة استراتيجية تتمثّل في توجيه الفهم، وضبط العلاقة بين النص والمتلقي، وبناء التدرّج المقصدي في الخطاب، كما تبني المسافة المناسبة بين النص والمتلقي.

- **المحور الثالث: من التهيئة إلى التوجيه: التفاعل بين البلاغة والدلالة في البدايات النبوية:**

إنّ فنون البداية في الحديث النبوي تمارس وظيفتين متكاملتين هما:

- **التهيئة البلاغية**: فالبنية البلاغية تمهّد الطريق للمعنى.
- **التوجيه الدلالي**: بينما تعمل الدلالة على تثبيت المقصد، وتوجيه التأويل.

وهذا التكامل هو ما يمنح الخطاب النبوي قدرته الإقناعية والتأثيرية الفريدة، فعندما يُفتتح الحديث بنداء أو قسم أو استفهام، لا يكون الهدف جماليا فحسب، بل تواصليا؛ إذ تحدّد من خلاله العلاقة بين الرسول والمتلقين، ويُبنى المعنى في ضوء مقام مخصوص، وهكذا تتجسّد بلاغة البداية في كونها تؤسّس للخطاب، وتوجّه الفهم في آن واحد.

ويتجلى البعد التوجيهي والدلالي في بدايات الحديث النبوي من خلال تنوع الأساليب التي استثمرها النبي في بناء خطابه، بحيث لا تنحصر البداية في وظيفة تمهيدية لجذب الانتباه، بل تتجاوزها إلى أدوار توجيهية وتعليمية وتفاعلية، تُسهم في ترسيخ المعنى في ذهن المتلقي.

1- الوظيفة التحذيرية: تُستثمَر الوظيفة التحذيرية في الخطاب حين يرمي المتكلّم إلى التنبيه على خطر واقعي أو متوقع، دنيوي أو أخروي، مادي أو معنوي، مع السعي إلى دفع المتلقي لتجنّب هذا الخطر، أو الحدّ من آثاره، ويلاحظ في هذه الوظيفة توظيف أدوات

الإنذار، وصيغ التخويف الإيجابي، وتمثيلات المصير أو العاقبة بوصفها آليات ردع معرفي وقيمي توجّه الإدراك نحو الحذر لا اليأس.

ومن شواهد هذه الوظيفة في الحديث النبوي ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة قال: قال رسول لله : «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسّسوا ولا تجسّسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم»[40].

الحديث يُفتتح بصيغة تحذير صريحة «إياكم والظن» وهي من أقوى صيغ الزجر في العربية، إذ تجمع بين أسلوب التحذير الإنشائي، ونغمة التوجيه التربوي، وتقديم المفعول "إياكم" يخلق مقاما بلاغيا حادا يوحي بالجدية والخطر، ثم يأتي التعليل بعدها «فإن الظن أكذب الحديث» ليمنح التحذير مشروعيته المنطقية، هذا الجمع بين لزجر والتعليل يُكَوّن بناء بلاغيا مزدوج الوظيفة: انفعاليا وعقليا في آن واحد.

هذا بلاغيا، أما دلاليا، هنا يتجاوز مُجرّد النهي عن سوء الظن، فهو تحذير من تآكل الروابط الاجتماعية بسبب الظنون، فالافتتاح التحذيري يحْدِث أثرا نفسيا مباشرا، يجعل السامع في موقف يقظة واحتراز، أما التعليل فيحوّل المتلقي من الانفعال إلى الوعي، وهي ذروة البلاغة النبوية في التوجيه الأخلاقي.

2- الوظيفة التبيينية:

هي وظيفة توضيحية - تفسيرية – شارحة، تُعْنى بإزالة الغموض وتفصيل المقصود، وتقديم بيان معرفي أو دلالي للمتلقي، والغرض الأساس الفهم، تظهر عبر الشرح والتعليل، والتفصيل، وكشف المقاصد، مثل قوله : «الصلاة نور»: تعني تهذيب للنفس وتزكية للقلب، فالمهمة الأساس للبنية التبيينية هي شرح المعنى، وتوضيحه، وكشف المقصود، فهي إذن وظيفة معرفية – تفسيرية، تعمل على إزالة اللبس وإتمام الفهم، إذا غايتها الأساسية هي الفهم الواضح، والمنضبط، لا مجرّد السماع، والانتباه.

وتجلّياتها تكون مثل: التعليل، التفصيل، الشرح، إعادة الصياغة لبيان المقصود، كشف المحذوف، فمثلا حين يقول القائل: (أي: كذا وكذا .... أو بمعنى ...) هذا الخطاب لا يريد شدّ انتباهنا بقدر أن يجعلنا نفهم المقصود بوضوح.

وتتجلى الوظيفة التبيينية في حسن الابتداء في الحديث النبوي في الحديث الذي رواه معاذ بن جبل قال: كنت رديف النبي على حمار فقال: «يا معاذ، هل تدري ما حق الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟» قلت الله ورسوله أعلم، قال: «فإنّ حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئا، وحق العباد على الله ألا يُعذب من لا يشرك به شيئا»، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشّر الناس؟، قال: «لا تبشّرهم فيتكلوا»[41].

البداية ندائية حوارية: "يا معاذ"، أسلوب نداء يُقرّب السّامع، ويُنشئ علاقة وجدانية، أما الاستفهام هنا تمهيدي تشويقي؛ يدفع المخاطب إلى الإصغاء لمعرفة الجواب، فالجمع بين السؤالين المتوازيين فيه من موازنة بلاغية تُبرز العلاقة بين العبد وربّه.

هذا بلاغيا أما دلاليا فنحن هنا أمام الوظيفة التبيينية والتعليمية، إذ يبدأ النبي بأسلوب سؤال بعد النداء ليبني المعرفة في نفس المتلقي، ويرسّخ لديه مفهوم العبودية والتوحيد بطريقة تفاعلية.

3- الوظيفة التنبيهية:

هي بنية توجّه انتباه المتلقي نحو فكرة، أو حكم، أو موضع دلالي مهم، غرضها الأساس: لفت الانتباه وتركيز الذهن، لا الشرح بحدّ ذاته، وبتعبير آخر: هي بنية تستخدم لإيقاظ انتباه المتلقي، وتركيز انتباهه ووعيه قبل استقبال مضمون مهم، تتحقّق عادة بأدوات مثل: أ(لا، أما، بعد، هاه، انتبهوا، انظر، اسمع، يا ....) وعبر مقام الانتباه البلاغي مثل الجملة الاعتراضية، والتنبيه بالصوت، والإيقاع، والالتفات. مثال قوله : «ألا هل بلغت، اللهم فاشهد»، فالوظيفة الأساسية للبنية التنبيهية هي لفت الانتباه، وإعداد ذهن المتلقي قبل تلقي الفكرة المهمة، فهي وظيفة إدراكية- تواصلية، هدفها ليس الشرح فقط، بل إيقاظ الذهن، فتعمل على الانتقال بالسامع من وضعية عادية إلى وضعية يقظة معرفية.

ومن أساليب هذه البنية: أدوات التنبيه (ألا، أما هاه، ألا إنّ ...)، الالتفات المفاجئ، تغيير النغمة أو الإيقاع، أسلوب النداء، فمثلا في قوله : «ألا إنّ في الجسد مضغة .... » هنا ألا ليس شرحا، بل جرس إنذار معرفي قبل المعلومة الجوهرية.

ومن أمثلة ذلك في الحديث النبوي أيضا الحديث الذي رواه أبو هريرة : قال: قال رسول الله : «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أَبَـى » قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟، قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[42].

الافتتاح خبري عامّ يُشيّد قاعدة كلية: «كل أمتي يدخلون الجنة» ثمّ يأتي الاستثناء«إلا من أبى» فيحدث مفارقة تداولية تشد الانتباه، إذ تثير جملة الخبر تساؤلا ضمنيا عند السامع: ومن الذي يأبى دخول الجنة؟ هذا الأسلوب يفتح أفق التلقي قبل أن يُتبِعَ النبي ﷺ التوضيح: من أطاعني دخل الجنّة، "ومن عصاني فقد أبى" فهو افتتاح يُمهّد للسياق التعليمي بطريقة تشويقية.

ولذا نستطيع أن نقول أنّنا هنا أمام الوظيفة التهييئية؛ لأنّها تهيّئ ذهن السامع بسياق غير متوقّع وذلك بقوله ﷺ: «كل الناس يدخلون الجنة إلا من أبى»، وفي نفس الوقت نستطيع أن نقول أن هناك وظيفة أخرى تتعاضد مع الوظيفة التهييئية وهي الوظيفة التنبيهية؛ وذلك لأنّها تستفزّ العقل، وتوقظ الانتباه لمعرفة من أبى.

إذ قد تتداخل الوظائف السابق ذكرها، فتجتمع البنية التنبيهية مع التبيينية في حديث واحد، لكن لكلّ منهما وظيفته الخاصة، فالبنية التنبيهية تمهّد الطريق، والوظيفة التبيينية تتمثل في شرح المحتوى، وكأن الخطاب هنا يقول: "انتبه أولا .... ثم افهم ثانيا".

4- الوظيفة التوجيهية:

هي وظيفة لغوية – تواصلية، يوجّه فيها المتكلّم المتلقي نحو سلوك، أو موقف معيّن، أو قرار عملي، إما عبر الأمر أو النهي، أو النصح، أو الإرشاد أو التوجيه العملي، هدفها الأساسي: تحديد المسار السلوكي أو القيمي الذي ينبغي اتباعه.

ومن شواهد هذه الوظيفة في الحديث النبوي نذكر الحديث الذي رواه أبو ذر جندب بن جنادة قال: قال رسول الله : «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[43].

تبدأ الجملة بأمر مباشر (اتق الله)، وهي صيغة أمر جليل تتضمن في باطنها النهي عن التقصير، وهذه البداية الآمرة تفتح النص على نغمة سلطوية تربوية، لكنّها سرعان ما تتحوّل على خطاب وجداني بعبارة: (حيثما كنت)، التي تكسر الإطلاق المكاني، وتمنح الأمر

شمولا زمنيا ومكانيا، وتجمع البداية بين الصرامة والحنان، فالأمر موجّه إلى الضمير لا إلى الجسد، والاتقاء فعل قلبيّ قبل أن يكون سلوكيا.

هذا بلاغيا، أما دلاليا: نرى مجيء الجملة في صيغة وصية مفتوحة، فلا تُقَيّدُ التقوى بمقامٍ، أو حالٍ؛ بل تجعلها حالة ملازمة للوجود الإنساني، فهي بداية تحوّل النص من مُجرّد أمرٍ إلى ميثاق سلوكي دائم، وهذه ذروة البلاغة التوجيهية في الحديث النبوي.

ومن أمثلته في الحديث النبوي الحديث الذي رواه أبو رقية تميم بن أوس الداري قال: قال الرسول :: «الدين النصيحة» قلنا: لمن يا رسول الله، قال: «لله وكتابه ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[44].

الافتتاح بجملة اسمية تقريرية: الدين النصيحة يشي بالثبات والعموم، وهو من الأساليب البلاغية التي تستخدم في الإقناع بالإيجاز، فالإيجاز هنا حجاجي الطابع؛ يختصر الدين في قيمة واحدة شاملة، فيثير التساؤل الطبيعي عند السامعين، فيأتي الجواب تفصيليا، والبنية الحوارية بين النبي وأصحابه تمنح الخطاب قوة تداولية لأن الإقناع لا يتم عبر الوعظ، بل عبر المشاركة في الفهم.

هذا بلاغيا أما دلاليا، فإنّ الإقناع في هذا الحديث يقوم على الاستدلال بالجوهر لا بالمثال؛ فالنصيحة تُعرض كأصل للدين، لا كفضيلة فرعية، وهذا تحويل ذكي للمفاهيم؛ فبدل أن يقال: (كونوا ناصحين)، يقال: (الدين النصيحة) فيغدوا الإقناع وجوديا لا سلوكيا.

الدلالة النهائية هي أن الإيمان لا ينفصل عن الصدق في العلاقة مع الله والناس، فالنصيحة تصبح مبدأ جامعا يختصر جوهر الدين كله.

5- الوظيفة التداولية:

هي وظيفة تتعلّق بكيفية اشتغال الخطاب داخل سياق الواصل، من حيث المقصد والملاءمة، والإقناع، والمقام، والعلاقة بين المتكلم والمتلقي، هي وظيفة لا تهتم فقط بما يُقال بل كيف، ولماذا، ولمن، وفي أي ظرف، هي باختصار: الوظيفة التي تدرس أثر الخطاب في لحظة وقوعه تفاعله الواقعي مع المتلقي.

ومن أمثلة تحقق هذه الوظيفة في بديات الحديث النبوي ما نجده في بداية الحديث الذي رواه حارثة بن وهب: قال: قال رسول الله : «ألا أخبركم بأهل الجنّة؟ كل ضعيف متضعّف، لو أقسم على الله لأبرّه، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتلّ جوّاظ[45] مستكبر» [46].

يُفتتح الحديث بأداة تنبيه وتحريك وجداني: (ألا أخبركم) وهي من الأساليب البلاغية التداولية التي تجمع بين الإغراء والتشويق، والجملة الاستفهامية هنا ليست للسؤال، بل للإغراء بالمعرفة، كمن يقول: "تأهبوا سأكشف لكم أمرا عظيما"، ثم يأتي الجواب بعد تفاعل الجماعة بـ بلى يا رسول الله ليشكّل حوارا جماعيا ذا نغمة وجدانية، البلاغة هنا تكمن في بناء مشهد تواصلي حيّ فيه نداء ضمني، واستفهام، وتشويق، واستجابة؛ أي كل مقومات الخطاب التداولي الكامل.

هذا بلاغيا، أما المعنى الدلالي فيقوم على ربط القرب من النبي بالربط الأخلاقي لا المكاني، فالافتتاح التداولي بـ ألا أخبركم يجعل المتلقي يشعر أنّه مختار لسماع بشارة، لا مجرّد معلومة، وهكذا يتحقّق المقصد الأخلاقي عبر قناة وجدانية، فالمتلقي لا يتلقى أمرا بل يتلقى محبّة، إنّه إقناع وجداني، لا منطقي، لذا يُعدّ هذا الحديث من أصفى أمثلة البلاغة النبوية في بناء المشاركة الشعورية.

يظهر التحليل أن التكامل بين البنية البلاغية والدلالية في الحديث النبوي هو ما يمنح الخطاب قوته الاستثنائية، فكل وسيلة بلاغية: (نداء، قسم، استفهام، تكرار) تؤدي في الوقت نفسه وظيفة دلالية؛ إذ تسهم في تحديد المقام، واستحضار الموقف النفسي، وتعيين العلاقة بين المرسل والمتلقي، وهكذا تسهم فنون البداية في تحقيق التوازن بين البيان والإقناع، بين اللفظ والمعنى، فتغدو اللحظة الأولى من الحديث النبوي مفتاحا لتأويل الرسالة النبوية، ومدخلا إلى دلالتها العميقة.

- خاتمة:

أثبتت الدراسة أن فنون البداية في الحديث النبوي تمثل ظاهرة بلاغية دلالية غنية، تجمع بين الجمال الفني والوظيفة التواصلية، فهي تهيّء السّامع لتلقي الرسالة، ثمّ توجّهه نحو مقصدها التعليمي، أو الإرشادي، وتنوّع هذه البدايات بين النداء والقسم والاستفهام، والتكرار والكناية، و غيرها من الأساليب ... الخ كشف لنا براعة الرسول في توظيف الأساليب البلاغية لخدمة المعنى، فالرسول استخدم هذه الآليات لتفعيل آلية التلقي، وتحريك البنية الذهنية والوجدانية للسامع، كما أن فن التوجيه يُمثل ذروة هذا المسار

البلاغي، إذ ينتقل فيه القول من البيان إلى التأثير، ومن الإخبار إلى التغيير، بفضل التلاحم بين البنية اللغوية والمقصد الدلالي، وأداء التكلم النبوي المهيمن على جوّ الخطاب.

وتكشف دراسة بلاغة البداية في الحديث النبوي أن الخطاب النبوي لا ينهض على الجمال اللفظي فحسب، بل على وظيفة تواصلية عميقة تجعل كل تركيب لغوي جزء من استراتيجية تأثير هادفة، فالبدايات النبوية لم تكن مجرد استهلالات تقليدية، بل مداخل واعية إلى الفهم والإقناع والسلوك، تحول المستمع من مُتلقٍ سلبي إلى متفاعل مندمج في بنية القول.

إنّ بلاغة البداية النبوية ليست في صياغة اللفظ وحده، بل في ذكاء المقام، واقتصاد اللغة، وعمق التوجيه، وهي بذلك تمثّل نموذجا متفرّدا لتكامل البلاغة والدلالة في الخطاب العربي الاسمي.

- التوصيات:

- توصية بمتابعة دراسة البنى الختامية في الحديث النبوي لاستكمال الصورة الخطابية.

- ضرورة إعادة قراءة البلاغة النبوية ضمن منظور تداولي - تفاعلي، يربط بين البلاغة والمقام والوظيفة التواصلية.

- التوسّع في دراسة الافتتاح في الحديث النبوي بوصفه نمطا بلاغيا متكررا ذي دلالات نفسية واجتماعية.

- العناية بتحليل البنية الصوتية والإيقاعية في الأحاديث، لما لها من أثر في توليد المعنى والتوجيه.

- الدعوة إلى إدماج البلاغة النبوية في الدراسات اللغوية الحديثة، باعتبارها نموذجا تطبيقيا للبلاغة الفاعلة التي تمزج بين الجمال والوظيفة.

- توجيه الباحثين إلى دراسة بلاغة التوجيه والإقناع في مجالات أخرى من الخطاب الإسلامي (كالخطبة، والوصية، والرسالة)؛ لاستكمال ملامح النسق البلاغي في التراث.

- **الإحالات والهوامش:**

---

[1]-الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال بيروت، 2423هـ، ج2، ص 12.

[2]- التبريزي، الخطيب، الوافي في العروض والقوافي، تح: فخر الدين قباوة، عمر يحي، ط2، 1975م، ص 284.

[3]- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان، 2007م، ص 228، نقلا عن كتاب الفوائد، ص 139.

[4]- الرازي، أبو عبد الله محمد بن بكر، روضة الفصاحة، تح: خالد الجبر، دار وائل للنشر، ط1، 2015م، ص 154.

[5]- المغيض أحمد عبد الله- الشيخ خليل، عتبات الاستهلال والإهداء والهوامش في الرواية النسوية الأردنية، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، مج 17، ع1، 2019م، ص 347.

[6]- ينظر: المغيض - الشيخ، عتبات الاستهلال، ص 347.

[7]- ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص 96، والهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998م، ص 260.

[8]- المدني، علي بن معصوم المدني، أنوار الربيع في أنواع البديع: تح: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، ط1، 1968م ج1، ص 34.

[9]- الحموي، تقي الدين ابن حجّة، خزانة الأدب وغاية الأرب، تح: كوكب دياب، دار صادر، بيروت، ط2، 2010م، ص 307.

[10]- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط، 1974م، ج3، ص 343.

[11]- النووي، أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، تح: سيد عمران وآخرون، دار الحديث، القاهرة، د ط، 2007م، الحديث رقم: 236، متفق عليه، كتاب: المقدمات، باب: تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم.

[12]- النووي، رياض الصالحين، حديث رقم:322،رواه البخاري، كتاب: المقدمات، باب: بر الوالدين وصلة الأرحام.

[13]- النووي، رياض الصالحين، حديث رقم: 282، متفق عليه، كتاب: المقدمات، باب: حق الزوج على المرأة.

[14]- فيود، بسيوني عبد الفتاح، علم البيان، دراسة تحليلية لعلم البيان، مؤسّسة المختار، ط 2، 1998م، ص 17.

[15]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم: 224، متفق عليه، كتاب: المقدمات، باب: تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم.

[16]- النووي، رياض الصالحين، حديث رقم: 163،رواه مسلم، كتاب: المقدمات، باب: في الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها.

[17]- النووي، رياض الصالحين، حديث رقم: 336، متفق عليه، كتاب: المقدمات، باب: زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم..

[18]- فيود، بسيوني عبد الفتاح، علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية، مؤسسة المختار، ط 3، 2013م، ص 419.

[19]- يُنظر:زدام سعاد، دلالة الأساليب الإنشائية في القرآن الكريم، النداء أنموذجا، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أحمد بن بلة وهران، الجزائر، 2018م/2019م، ص 16.

[20]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم: 53، متفق عليه، كتاب: المقدمات، باب: الصبر.

[21]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم: 62، رواه: الترمذي، كتاب: المقدّمات، باب: المراقبة.

[22]- ينظر: أبو ديب كمال، جدلية الخفاء والتجلّي (دراسة بنيوية في الشعر)، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979م، ص 69.

[23]- النووي، رياض الصالحين، حديث رقم: 510، رواه الترمذي، كتاب: المقدمات، باب: فضل الجوع وخشونة العيش والاقتصار على القليل من المأكول، والمشروب والملبوس وغيرها من حظوظ النفس.

[24]- ينظر: عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، ط1، 1992م، ج1، ص 208.

[25]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم: 309، رواه: مسلم، كتاب: المقدّمات، باب: حق الجار.

[26]- النووي، رياض الصالحين، حديث رقم: 869، رواه أبو داوود، كتاب: السلام، باب: استحباب السلام إذا قام من المجلس..

[27]- النووي، رياض الصالحين، حديث رقم: 671، متفق عليه، كتاب: المقدمات، باب: وجوب طاعة ولاة الأمور.

[28]- المصري ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، تح:حفني شرف، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ط 2، 1957م، ص 112.

[29]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم: 1870، رواه: البخاري، كتاب: الاستغفار، باب: الاستغفار.

[30]- النووي، رياض الصالحين، حديث رقم: 1821، متفق عليه، كتاب: المنثورات والملح، باب: المنثورات والملح.

[31]- النووي، رياض الصالحين، حديث رقم: 13، رواه البخاري، كتاب: المقدمات، باب: التوبة.

[32]- ينظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2001م، ص88.

[33]- نعمان بوقرة، ملامح التفكير التداولي عند الأصوليين، بحوث ودراسات، إسلامية المعرفة، السنة الرابعة عشر، ع 54، خريف 2008م، ص 113.

[34]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم: 218، رواه: مسلم، كتاب: المقدمات، باب: تحريم الظلم، والأمر برد المظالم.

[35]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم: 1030، رواه: مسلم، كتاب: الفضائل، باب: فضل الوضوء.

[36] - ينظر: بدر الدين، أميمة، لتكرار في الحديث النبوي، مجلة جامعة دمشق، مج: 26، ع1 وع 2، 2010م، ص 89.

[37]- النووي، رياض الصالحين، حديث رقم: 1441، رواه الترمذي، كتاب: الأذكار، باب: فضل الذكر والحثّ عليه.

[38]- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، الرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي وشركائه، ط2، 1957م، ج2، ص 216.

[39]- النووي، رياض الصالحين، حديث رقم: 486،رواه الترمذي، كتاب: المقدمات، باب: فضل الزهد في الدنيا، والحث على التقلّل منها.

[40]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم: 1570، رواه: مسلم، كتاب: الأمور المنهي عنها، باب: النهي عن التجسّس والتسمّع.

[41]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم:426، متفق عليه، كتاب: المقدمات، باب: الرجاء.

[42]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم: 158، رواه: البخاري، كتاب: المقدمات، باب: في الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها.

[43]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم: 61، رواه: الترمذي، كتاب: المقدمات، باب: المراقبة.

[44]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم: 181، رواه: مسلم، كتاب: المقدمات، باب: النصيحة.

[45]- العتل: الغليظ الجافي، والجوّاظ بفتح الجيم وتشديد الواو: هو الجَمُوعُ المَنوعُ، وقيل الضخم المختال في مشيته.

[46]- النووي، رياض الصالحين، الحديث رقم: 252، متفق عليه، كتاب: المقدمات: باب: فضل ضعفة المسلمين والفقراء.

- قائمة مصادر البحث ومراجعه:

- أبو ديب كمال، جدلية الخفاء والتجلّي (دراسة بنيوية في الشعر)، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1979م.

- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان، 2007م.

- التبريزي، الخطيب، الوافي في العروض والقوافي، تح: فخر الدين قباوة، عمر يحي، ط2، 1975م.

- الحموي، تقي الدين ابن حجّة، خزانة الأدب وغاية الأرب، تح: كوكب دياب، دار صادر، بيروت، ط2، 2010م،

- الرازي، أبو عبد الله محمد بن بكر، روضة الفصاحة، تح: خالد الجبر، دار وائل للنشر، ط1، 2015م.

- المصري ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، تح:حفني شرف، دار النهضة الفجالة – القاهرة، ط 2، 1957م.

- المغيض أحمد عبد الله- الشيخ خليل، عتبات الاستهلال والإهداء والهوامش في الرواية النسوية الأردنية، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، مج 17، ع1، 2019م. الصفحات من 345 إلى 368.

- عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، ط1، 1992م، ج1.

- نعمان بوقرة، ملامح التفكير التداولي عند الأصوليين، بحوث ودراسات، إسلامية المعرفة، السنة الرابعة عشر، ع 54، خريف 2008م، الصفحات من 105 إلى 106.

- ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص 96، والهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998م.

- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال بيروت، 2423هـ.

- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط، 1974م.

- المدني، علي بن معصوم المدني، أنوار الربيع في أنواع البديع: تح: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، ط1، 1968م.

- النووي، أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، تح: سيد عمران وآخرون، دار الحديث، القاهرة، د ط، 2007م.

- زدام سعاد، دلالة الأساليب الإنشائية في القرآن الكريم، النداء أنموذجا، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أحمد بن بلة وهران، الجزائر، 2018م/2019م.

- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2001م.

- عز الدين السيّد، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، سنة 1392هـ.

- فيود، بسيوني عبد الفتاح، علم البيان، دراسة تحليلية لعلم البيان، مؤسّسة المختار، ط 3، 2013م.

- فيود، بسيوني عبد الفتاح، علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية، مؤسسة المختار، ط 3، 2013م.